محاولات إصلاحية منذ ٢٥ عاما؟

في عالم أصبح التغيُّر السريع سِمَته والتطوير المستمر نحو الأفضل حركة أساسية فيه.. في عالم مثل هذا يصبح الثبات على الموروث ليس توجُّهاً للخلف فقط بل هو حركة ارتجاعية وتقهقر..

وإذا التمسنا عذراً -ولن نفعل- للحكومات؛ نظراً لتعقُّد الواقع وتدخلاته وضخامة الهيكل الذي يراد تغييره، فمن المفروض ألا يتسرب الجمود إلى حركة الإخوان المسلمين النهضوية التي تكافح لطرح مشروع جديد مغاير للواقع، ويفترض فيه أن يكون مستقبلياً وعلى مستوى هذا الواقع المتقافز نحو مزيد من التطوير والتنضيج بكل خلجاته وحركاته الظاهرة المستمرة..

لذلك فلنبدأ معاً في قراءة متأنية لأوراق غاية في الأهمية قدَّمها مجموعة رائعة من قيادات وكوادر جماعة الإخوان المسلمين أعرف منهم محمود الطحاوي طالب كلية الطب وقتها والطبيب النابه الآن وشقيق الأديبة اللامعة ميرال الطحاوي، وغيره والذين درج على تسميتهم "الإصلاحيون" في صيف عام ١٩٨٦ عبر القنوات الشرعية التي يتحجَّج دائماً القائمون على الجماعة بعدم النظر في أي ورقة تطوير إلا عن طريقها، واليوم وبعد ربع قرن من تقديم

هذه الأوراق أعتقد أن القارئ العادي وغير المتخصص في شأن الإخوان سيجد حيرة وربما عدم تصديق أن هذه الأوراق قُدِّمت منذ ذلك الزمن وليس منذ أيام..!

بل ويتعجَّب أن قيادة الجماعة لم تحاول النظر باهتمام في هذه المراجعات الفكرية المفصلية والأخرى الاستراتيجية.. بل وما زال العمل يدار بطريقة تقليدية، والفعل يتم عن طريق رد الفعل، بل إن هذا هو المنهج المتبع دون مبادرات تُذكر..

وما زال مسلسل ملاحقة من ينادون بالتغيير والتطوير بهمَّة عالية ربما كان بقليل منها يمكِّن الجماعة من تحقيق شيء ملموس بعد هذا التاريخ الطويل، لكنها آفة الكثير من التنظيمات السرية التي تجد أن انكفاءها على أفرادها هو سرُّ قوتها، في حين أن الزمن والتاريخ لا يرحم ولن يرحم جماعة هي جماعة الفرص الضائعة بامتياز، مما حدا بهؤلاء الإصلاحيين إلى الانسحاب، ولم يتبقَّ منهم إلا عدد قليل للغاية ربما يقاوم البقاء؛ ظناً منه أن الوجود داخل جماعة لا تقبل التطوير أو ربما تقبله بعد ردح من الزمن أفضل من الوجود في الشارع..!

بداية أريد أن أؤكد أنني تجرَّأت بطرح هذه الورقات إعلامياً؛ لأنني أيقنت بوهم القنوات الشرعية والتي تستدعى مثل الإسبرين لتسكين صداع التطوير والتغيير، فيكون مصير ما يُنقل فيها سلة المهملات مثل الورقات التي بين أيديكم.. ولأني أيقنت بأن الشفافية هي الحل لتوعية الصف الإخواني خاصة والجمهور عامة؛ ليضغطوا من أجل التغيير داخل وخارج الجماعة التي نعوِّل عليها كثيراً في التغيير والإصلاح في بلادنا بل وإحراج أصحاب الممارسات الخطأ الذين يتخيلون أنهم أوصياء عليها ويحافظون عليها من الذوبان،

ولكنهم -مع الأسف- لا يعلمون أنهم مثل الدبّة التي قتلت صاحبها، وأن الزمن تغير، وأنه ما كان يصلح أمس لا يصلح اليوم وما يصلح اليوم لا ينفع غداً...

وأريد أن تجهد القيادة الحالية للجماعة نفسها بالنظر في هذه الورقات القديمة، وتحاول الاستفادة منها بدلا من الحل السهل بالمزايدة على ناقلها بتلقين الصفّ بأنه أصبح مارقاً بين ليلة وضحاها بعد أكثر من ٢٠ عاما قضاها داخل جماعة الإخوان..

أبدأ هذه الورقات التي بدا على كاتبيها التأثر بكتابات الدكتور خالص جلبي وكتابه المهم "ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية" والذي صدر قبل هذه المراجعات بسنوات قليلة، وكذلك بكتابات الدكتور عبد الله النفيسي ومنها كتابه "الحركة الإسلامية.. رؤية مستقبلية".

جاءت هذه الورقات تحت عنوان "أزمة التنظيم تربوياً وادارياً"، وجاء في مقدمتها تمهيد للحديث عن أزمة التنظيم عموماً:

بدأ كاتبو هذه المراجعات بقولهم: إننا نجد أنفسنا أمام ميراث ضخم من الثبات والديمومة والجمود على مستوى الفكر والطرح والهياكل التنظيمية، ويمتد الأمر بالبعض فيجعلون هذا الميراث جزءا لا يتجزّأ من التراث الإسلامي نفسه، وبالتالي هو مقدّس وغير قابل للنقد والدراسة.. لقد وصل إلينا التنظيم صفوياً قائماً على انتقاء نوعية معينة من الناس لتمرّ عبر حلقات من التربية والتشكيل بمعزل عن حركة المجتمع وتأثيراته إلى حد كبير، وهذا جعل التنظيم هلامياً غير محدد الملامح وليس له دور في مستوى ومجال العمل المطلوب، ولذلك افتقد للدور وتحوّل إلى وعاء تحاول بداخله تعبئة الجماهير، بدلاً من أن يكون الأداة التي تنظم الجماهير وتقودها إلى إحداث التغيير المطلوب والممكن، وبذلك لم يصبح التنظيم مجرد وسيلة من وسائل متعددة

بل تضخّم دوره وهيكله ومجالات عمله، وأصبح هناك فكر التنظيم وثقافة التنظيم... إلخ.

وأصبح من المتصور أنه يمكن تحويل المجتمع إلى مساحة تنظيمية وبالتالي يسهل قيادتها وتوجيهها، وكأن قيادة أمة ومجتمع مثل قيادة تنظيم، وهذا تصور غير مقبول وتبسيط مخلٌ للمسألة، وتحوَّل التنظيم من وسيلة لحفظ الذات من الذوبان وأداة لتغيير المجتمع إلى مجتمع مصغر يحاول جاهداً ابتلاع المجتمع الكبير الذي نشأ فيه، وتعامل التنظيم بنفس المنطق مع الآخر غير الإسلامي؛ إذ رأى فيه صيداً يسهل ويحسن افتراسه، ولم يفسح له مجالاً للعمل..

(وكأن من يكتب هذه الأوراق ينظر لحال الجماعة اليوم).

الازدواجية بين السرية والعلنية

وتتناول هذه الأوراق معضلة أزلية لم تحاول أو تسعى إليها قيادة الإخوان خلال العقود الأخيرة؛ وهي حسم موضوع السرية أو العلنية والبحث عن شرعية للجماعة، فتقول: ونقطة أخرى يجدر تأملها وهي الازدواجية بين السرية والعلنية؛ فالتنظيم كان -بصورة عامة- معلناً حتى سنة ١٩٤٠ وبعد تشكيل النظام الخاص لظروف تاريخية معروفة غلب الطابع السري على الحركة خاصة الخمسينيات والستينيات، ومنذ خروج الإخوان من السجون والتنظيم يعاني من ازدواجية بين سرية بلا معنى وعلنية المخبر السري، وفوَّتت هذه الوضعية مميزات السرية والعلنية معاً، بل إن سلبيات السرية هدمت أحياناً مكاسب العلنية، وستبقى المشكلة كامنة في صفحات المستقبل متمثلة في تغلُّب إحدى الشخصيتين، فهل تتغلب الشخصية السرية الطارئة

على الشخصية العلنية الأصيلة؟

ولعلنا نذكر للأمانة أن هذه الازدواجية ليست عيباً اختصت به الحركة الإسلامية دون غيرها، بل هي صفة ملازمة لأفكار وحركة المجتمع في العالم الثالث، ألا وهي الميل للتلفيق والحذر من الحسم والاختيار والتمييز على مستوى الأفكار ونظام الحكم والاقتصاد والقيم الاجتماعية.. نظن أن شيئاً ما حدث في تاريخنا أورثنا هذا الخلل..

وخطورة السرية أيضاً أنها تكون مبرراً للاستبداد بالرأي والانفراد باتخاذ القرار تحت دعوى أن القيادة تعرف أكثر، فيتحول التنظيم إلى جهاز تواكلي راكد يورث الاستبداد والخمول والركود وعدم الفاعلية؛ لوجود آراء مختلفة وحلول متعددة، وعدم وجود قنوات لتوصيل هذه الآراء والحلول -إن وجدت- فيشعر الفرد الإخواني بهامشيته فينسحب..

وهكذا أصبحت السرية ملجأ مفتوحاً تلجأ إليه القيادة لتمارس حقها المقدس في الوصاية على القاعدة..

ضرورة النقد الذاتي لحماية المسار

تنقلنا الأوراق إلى نقطة خطيرة وهي أهمية النقد الذاتي للجماعة والتي يتهم من يقوم به هذه الأيام بأنه مفتون ضعيف الإيمان ناقض للبيعة..!

وفي هذه النقطة تحديداً تحذر الأوراق من:

ذلك هو التداخل المغلوط بين الدين والتنظيم كجهد بشري قائم على أساس تعاقدي وعلي شروط ينتقض العقد بانتقاضها، وبين الدين باعتباره الإطار المرجعي الذي تُرَدُّ إليه الأمور ولا سبيل للاعتراض أو الاجتهاد

مع نصوصه القاطعة، وهذا التداخل ناتج عن أخطاء في المفاهيم المتعلقة بالإسلام والأزمة وطبيعتها والتنظيم نفسه ودوره، ويؤدي هذا التداخل إلى إعاقة التنظيم وحركته بمصادرته للاجتهاد والتفكير المستقل وتبادل البذل، وانظر سعيد حوّى في كتابه "من أجل خطوة إلى الأمام" يقول:

"لقد رأيت أناساً يزعمون أن التنظيم إذا قال لا يحتاج لدليل شرعي، وهذا نوع من إعطاء العصمة لمن لا يملكها وطريق للاستبداد وتعطيل النصوص".

ويقول أيضاً:

"لقد رأيت أناساً يجعلون الفريضة محرمة باسم التنظيم.. نحن لا نعطي للجماعة في العمل الإسلامي عصمة ولا نعطي لقيادة أي فرد عصمة، ويخطئ من يقول إذا قالت الجماعة شيئاً أو قال التنظيم شيئاً فإننا لا نبحث عن دليل؛ فهذا نوع البابوية والإمامية، ولقد رأينا نتيجة لذلك أن بعض المنتسبين لتنظيمات تظن فيهم روح قتلة الحسين منهم من يرتكبون أبشع أنواع الظلم باسم الإسلام وهم مرتاحو الضمير، ورأينا بعض القيادات تخدع أتباعها فتصدر حكماً خاطئاً، ورأينا بعض قياديين تغلبهم الأهواء، ورأينا قيادات تكذب، ورأينا قيادات تستعمل خداع الشعارات؛ فمثلاً في البيعة في الاصطلاح الفقهي غير البيعة في اصطلاح العمل الإسلامي، ولقد رأينا من يحاول أن يخدع السذّج فيعطي البيعة التي تعطي لبعض أمراء الجماعة الإسلامية مضمون البيعة التي وردت في الأحاديث النبوية، ورأينا قيادات تعامل المختلفين معها على أنهم خوارج". انتهى كلام حوّى.

وكما قال أحد قيادات الإخوان -رحمه الله- تحت عنوان:

"لا عصمة للتنظيم ولا لمؤسساته، ولا لأي قيادة غير قيادة الرسل عليهم السلام".

والملاحظ أن هناك حرصاً عجيباً ورعاية مثيرة مُولاة لإرساء هذا المفهوم وترسيخه وتوريثه عند القاعدة، سواء بالخلط في الممارسة أو الخلط في الخطاب..

ارجعْ مثلاً إلى كتاب الأستاذ مصطفى مشهور "بين القيادة والجندية" يقول: "على القيادة أن تحرص على توريث الدعوة إلى الأجيال التالية بكل أصالتها وشمولها وخبراتها؛ لضمان مواصلة السير على طريق الدعوة دون انحراف أو تفريط".

قارن بين هذه النظرة ومفهوم الوفاء فيها بنظرة الأستاذ راشد الغنوشي لعملية الوفاء والأصالة؛ حيث يقول: "إن الوفاء للرواد لا يكون بالجثوم على قبورهم وآثارهم ونكررها ونسبح بحمدها، وإنما نطوّر تلك الجهود ونقوم بنصيبنا في خدمة الإسلام، فإن الزمن في حركة مستمرة ومتواصلة، وما سبيل لخلود الإسلام إلا بهذا التجديد المستمر".

كما يزيد الأستاذ مصطفى مشهور عندما يقول في كتابه "بين القيادة والجندية" ص٦٧:

"ويعلم الفرد أن تعهُّده وبيعته لقيادة الجماعة إنما هي في الحقيقة تعهُّد وبيعة لله يلزمه الوفاء بها وعدم النكث فيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾".

ويقول في صفحة ٧٨:

"لا تعتبر جماعة تحقق أهدافاً وتنجز أعمالاً إلا إذا كان أفرادها يسمعون ويطيعون لقيادتهم تعبداً وطاعة لله؛ فإن طاعة الأمير من طاعة الله، والامتناع عن تنفيذ الأوامر أو مجرد التردد في تنفيذها يعرِّض العمل للخطر، ويعتبر نكثاً للبيعة".

ويذهب الأستاذ مصطفى مشهور لأبعد من ذلك في تكريس هذا التداخل؛ بتحذيره من إلصاق المحن والابتلاءات بالقيادة فيقول: "ولا يظنّ أحد أن هذه المحن ضربات قاضية، ولكنها صقل وتمحيص للمؤمنين، ولا يتطرق لأحد يأس لسبب شدة المحن أو طول أحداثها، كما لا يتصور أنها نتيجة لأخطاء أو تقصير من القيادة كما يحاول المشككون تصويرها".

مما سبق يتّضح لنا أن هناك ركاما مفاهيميا وتراثا كاملا يعتمد هذا الخلط بين الدين والتنظيم، وليس هناك لتعمّد هذا الخلط وعدم مراجعته إلا أن هذا الخلط يساعد القيادة على إحكام قبضتها على القاعدة، ويدفع القاعدة إلى الاستسلام للقيادة بشكل كامل، خصوصا أن القيادة في مثل هذه التنظيمات لا تملك أي سلطات تنفيذية، فكان الربط هو اللجام الموضوع في فم الفرس ليسهل قيادته..

(والله لا أفهم كيف ترك منظرو الجماعة وشيوخها طوال هذه السنين آفة الخلط بين الدين والتنظيم دون توضيح وتأصيل إلى أن تحوّل إلى مرض، وأصبح الخروج عن الجماعة خروجا عن الدين، ونقد القيادة نقدا للدين؟).

استدعاء مخلٌ لأمراض القلوب

في هذه الجزئية تنقلنا هذه الأوراق إلى إشكالية استخدام الدين في خدمة تطويع التنظيم، فتقول: ونكتمل الحلقة الثلاثية بالتركيز في التربية والخطاب على أهمية مجاهدة أمراض النفس والقلب من حب الزعامة والجدال والرياء إلى آخره، وبدلاً من أن يقتصر الأمر على التذكير وترك مجال المجاهدة بين الفرد وبين الله عز وجل بدلاً من ذلك اقتحم التنظيم هذه العلاقة النشطة والحية في صدور القاعدة، واستحضر هذه الأمور من عالم الغيب إلى عالم

الشهادة قسراً، وظهر هذا الاستحضار بشكل مكثف عندما تتعرض القيادة للنقد أو النصيحة، فتقوم القيادة بمواجهة هذه القضايا العقلية والمنطقية المحسوسة والتي يسهل الحكم عليها عن طريق الردّ بالنصح بإحسان العلاقة بالله ومراعاة الإخلاص ومواجهة أمراض القلوب، مما يخنق القضية في مهدها؛ فهذه الأمور من أمور الغيب التي يستحيل أن تدخل طرفاً في قضية تمسُّ أموراً ظاهرة وواضحة يمكن الحكم عليها؛ مثل تقصير القيادة أو أخطاء المسئول، ونتيجة لهذه الهجمة المرتدة غير المرئية يلجأ الفرد إلى نفسه، وينشغل بمعالجتها وتقويمها والارتقاء بها، وهو مجال لا ينقضي وباب مفتوح.. فينسى النقد الذي وجّهه والقضية التي طرحها وينشغل عنها!

هي إذن عملية ضرب تحت الحزام.. واستغلال لنقطة ضعف لا تسلم منها نفس بشرية؛ للتخلص من مراقبة القاعدة وحقها في النقد، وبهذا اكتملت عناصر المثلث التي تحاصر الفرد وتحكمه داخل التنظيم (الدين - التنظيم - القلب) ولا سبيل لكسر هذا المثلث إلا عبر تحديد كل ضلع من أضلاعه، وهو ما يحتاج لجهد واجتهاد... "

(ما زلت أذكّركم بأن هذه الأوراق كُتِبت وقدّمت عام ١٩٨٦...!)

أزمة التنظيم التربوية:

يشخّص في الجزء التالي كاتبو هذه الأوراق مشكلة الجانب التربوي في الجماعة خلال هذه الحقبة تحليلا بدا فيه رفع للواقع الموجود وتجلياته والنتائج التي ترتّبت عليه، ويقدّمون بكل شجاعة وجسارة رؤيتهم في أمور يعتقد البعض بالخطأ بأنها من الثوابت التي لا تتغير، فيذكرون الآتي:

من المعروف أن نوعية التربية هي إحدى أطروحات الحركة الإسلامية التي تتحدى بها الواقع، وتراهن بها على المستقبل، وللتربية في الحركة وسائل متعددة يقوم التنظيم نفسه بدور محوري في صياغتها، بل إن التربية تتم من خلال منظومة التنظيم أساساً.. وهذه الصياغة قائمة أساساً على الحشد النفسي العاطفي أكثر من الإقناع والتشرب العقلي؛ ذلك أن القائمين على التربية هم خطباء بالدرجة الأولى، وليسوا من المفكرين الدارسين، ولذلك جاءت الصياغة عاطفية سرعان ما تذوب، وتفقد الكثير من أركانها إذا ابتعدت عن محور التنظيم، وإن كانت قادرة على مواجهة النقد العقلي المنطقي بسبب صياغتها العاطفية الصرفة، وأهم ما تتصف به هذه الصياغة أنها صياغة تلفيقية؛ فهي تجمع بين مدارس شتى دون رابط محكم؛ فبرامج التنظيم في أغلبها امتداد للبرامج والوسائل الصوفية مثل: زيارة المقابر.. قيام الليل الجماعي.. حلقات الأذكار الجماعية.. المعسكرات.. الأسرة.. الكتيبة.. الرحلة... إلى آخره.

وهذا النشاط الروحي بطبيعته الصوفية هو الغالب فيما يدعو إليه التنظيم من قراءات "الإحياء.. مدارج السالكين... إلخ.

والمشكلة أن المدرسة الصوفية تقدِّم نموذجاً حياتياً متكاملاً يصعب تجزئته؛ فهي تجعل من التهذيب والمجاهدة غاية الوجود، وتتهمَّش أو تكاد تنعدم الأبعاد الأخرى لدور الإنسان في الحياة؛ من تعمير وتعبيد ومجاهدة لطرح نموذج حضاري متكامل الصياغة لا تنفصل فيه علاقة الإنسان بربه عن علاقاته بالبشر كما هو الحال في النموذج الصوفي.. ويمتد أثر هذه الصياغة إلى العلاقة بين الفرد وقائده داخل التنظيم ونوعية العلاقة بين الفرد والتدين أو التعبد.. فالأولى علاقة بين المريد والشيخ، والثانية علاقة تنظيمية مؤطَّرة "شبه عسكرية"، لذلك تجد أن الممارسة الروحية مرتبطة ببرامج التنظيم

التعبدية ومواسم العبادة وتقل كلما ابتعدت عن هذه البرامج والمواسم..

كما يحدث نتيجة لهذا التداخل فرز خاطئ للأفراد وتصعيد للمسئولين على أساس عبادي وأخلاقي دون أي مؤهلات عقلية أو قيادية.

هذا على مستوى العبادة والتنسُّك، أما على مستوى الخطاب التنظيمي تجد الطيف السلفي والمدرسة السلفية في أكثر صورها تجمُّداً وتشدُّدا هو الطيف المبهر والفامر، ويتمثل هذا التشدد في الموقف الفقهي وفي الصبغة الأخلاقية في التعامل مع المشكلات المختلفة للحياة..

نظرة سريعة على تصنيف المواد التي تُدرَّس نجد أنها:

(قرآن كريم - سنة - حديث - سيرة - فقه ودعوة - تزكية روحية)

أين إذن بقية المحاور التي تقوم عليها الشخصية الإسلامية السوية والتي تخدم العقل وتزيده أتساعا وفقهاً من دراسات سياسية وأدبية واجتماعية؟؟

لا تجد برامج تخدم هذه المحاور اللهم إلا في صورة مبتورة عن طريق عدة دورات في التثقيف السياسي مثلاً وهكذا..

وتغيب تماماً الدراسات والمناهج التي تعالج مشاكل الواقع؛ مثل الموقف من الأقباط والقومية والوطنية والتراث والمرأة والتفاوت الطبقي والمشاكل الاقتصادية وتجارب التغيير والثورة في التاريخ القديم والمعاصر.. ومن هنا يمكن القول بأن محتوى البرامج تجريدي يختزل القضايا ويبسِّطها تبسيطاً مخلاً، ويصنع "طوباويات" روحية وصوفية يعيش بداخلها في راحة من الإجهاد الذهني الذي يعيشه العقل في التعامل مع الواقع والحياة..

لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الصياغة تشجِّع الانعزال عن المجتمع.

إن الواقع الذي نراه كما يقول خالص جلبي فيه تشكيلات كبيرة من

الإسلاميين الذين تخلَّصوا من الأمية الثقافية الإسلامية وهو أمر حسن من جانب، ولكنه في منتهى السوء من جانب آخر إذا دخل في روعنا بأننا بأمثال هذه الكوادر بإمكاننا إقامة مجتمع إسلامي، وحكم إسلامي..

إذن لا بد أن نلقي الضوء على ثلاث نقاط:

(١) العمل الفكري في الأسرة الإخوانية.

(٢) جوُّ التطور للجلسة والفرد.

(٣) ساعات العمل المبذولة.

لو بدأنا بساعات العمل المبذولة بعد حذف الأعذار والمعوقات نجد أنها تصل إلى ١٠٠ ساعة سنوياً أي ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ساعة في خمسة سنوات، فهل هذا القدر يكفي لتخريج مثقف دسم، وأبسط حلقة لدارس متخصص في علم واحد تصل لأضعاف هذا الرقم؟

أما عن جو الجلسة فهو كما هو رغم تنوع أفراد الجلسة في المستوى الثقافي والفكري رغم تقدُّمهم المفترض من مرحلة إلى مرحلة، فالجو واحد في كل المراحل قائم على النقل والتلقين.

ولذلك يتّصف التثقيف الإسلامي بخاصيتين هما: الضعف وعدم النمو، وتبقى مادة الجلسة وهي ثابتة لا تتغير: آية، وحديث، وحادث، وسيرة... وهذا يجعلنا نقول بأنه لا بد من تثوير في كمية ونوعية المادة.

إن أسلوب المدارسة داخل الأسرة الإخوانية يفتقد إلى تنمية القدرة على التلخيص والتركيز والفهم والتوصيل، بل وبما تكرر المنهج عدة مرات مع شخص، والنتيجة هي استحالة الوصول إلى الشخصية المطلوب تكوينها عبر هذه الخطوط المتخلّفة أساساً والناقصة موضوعاً والقصيرة وقتاً..

وبمراجعة رسائل الإمام المؤسس البنا نجد أن نظام الأسرة تقلّص وانكمش عما كان عليه في أيامه، وعما هو مفترض، وإن كان لنا ملاحظة أخيرة على التربية التنظيمية فهي عن دور الوسائل الأخرى للتربية؛ مثل الرحلة والمعسكر والدورة والكتيبة.. ودور هذه الوسائل أنجح بكثير إذا أمكن تطويرها بحيث تصبح بعيدة عن الروتين والتقليد، ورغم ذلك تبقى الأسرة هي الوسيلة الرئيسية لتكوين وتشكيل العقلية والثقافة الإسلامية، وتبقى لها أهميتها وضرورة مراجعة أسلوب إدارتها وفقراتها، وإلا فإن كل الوسائل الأخرى تصبُّ في المجرى الذي تنحته الأسرة في عقلية الفرد..

ولا بد من أن نسعى ونتلمس دورا للعلماء والمفكرين المعاصرين في تطوير الشخصية الإسلامية، وكيفية صقلها منهجياً وتربوياً، وعودة الذاتية الداخلية للإسلام بأساليب الدعوة الفردية؛ وخلق تيار فكري يؤمن بأن التميز لا يكون بالانفصال عن الواقع.

أختم هذه الحلقة وكلي دهشة على بقاء الحال كما هو عليه منذ ربع قرن.. قد يحدث تغيير في الشكل قد يخدع البعض، لكن المضمون في جانب التربية لم يتغيَّر، بدليل أن المناهج ومن يدرسها لم تغير الجماعة، وتحدث فيها نقلة أو ثورة يمكن أن نتحدث عنها؟



نستعرض في هذه الحلقة تصور الإصلاحيين القدامى لأزمة التنظيم إدارياً، ومطالبهم المتكررة بالقضاء على آفة القيادة الأبوية، وتحتّم علينا الموضوعية والأمانة أن نقول إن هناك تغييرا وحراكا محدودا حدث داخل الجماعة من ناحية تطبيق نظام الاختيار كشكل بدائي للغاية من أشكال الانتخابات، لكن ما زالت إشكالية إعداد لائحة معتبرة للجماعة قائمة رغم أن اللجنة التي تعكف على إعدادها بدأت عامها السادس منذ عدة أشهر، وعلى الرغم من التداعيات الكبيرة التي حدثت في انتخابات مكتب الإرشاد الأخيرة وما صاحبها من طعن قانوني قدّمه الدكتور إبراهيم الزعفراني -عضو مجلس شورى الجماعة والقيادي البارز- فإن ورقة الإطار الحاكم التي تمّ تسريبها منذ فترة وجيزة والتي تستطلع رأي المستويات الوسيطة في الجماعة في إعداد اللائحة توضح أن تطوير الجماعة إدارياً ولائحياً أمر صعب للغاية؛ في ظل وجود من يتصوّر أن في التغيير والتطوير خطرا وتهديدا على الجماعة!

أزمة التنظيم إداريا:

بين القيادة والفروسية

عندما قال الشاعر:

وأنا أبحث في كل الدروب فارس عملاق أين؟
أسمر الجبهة صخري الإرادة مارد يخطر كالحلم الأبي
يعرف الله ويغني في العشيرة ويردُّ الصاع صاعين
لكل الغادرين ابحثوا عنه في كل الدروب.. هو موجود
وعنتر فارس يهزأ من ليل الفناء هو للخلد رفيق

لم يكن هذا الشعر مجرد حديث، بل هو انعكاس لفكرة وآمال في أعماقنا كامنة وضعتها وكرّستها حكايات الأم لطفلها وأحاديث الشباب وأسمارهم عن هذا الفارس البطل الذي يعتري صهوة جواده، ويحلُّ بقوته الخارقة وقدراته اللامحدودة كل المشكلات..

وهكذا ظهر مَن ظهر من هؤلاء العناترة وبقي بداخلنا آخرون ننتظرهم حتى يجلس الشيعة في انتظار الإمام الغائب، وفي ظننا أن هذا المخزون التراثي والعاطفي جعلنا أكثر قبولاً بفكرة المستبد العادل الذي يجمع السلطات في يديه ويقيم العدل بين الناس..

مبدئياً نحن مستعدون لانتظار الإمام الغائب

مبدئياً نحن مستعدون لقيادة متشخصنة حول فارس ذي قوى خارقة مستبدة تجمع كل السلطات بين يديها، وتقوم بكل الأعباء تخطيطاً وتقريراً،

وكان المفروض أن تطرح الحركة الإسلامية بوصفها تفهم الأمر على غير ذلك مفهوماً مختلفاً للقيادة.. يقوم على أنها المؤتمرة على قرارات القاعدة والمنفّذة لما تشير به مؤسساتها الشورية؛ فالقيادة إدارية تنظيمية بالمقام الأول..

تضخّم دور وحجم القيادة بصورة غير معقولة حتى أصبحت تقريباً المؤسسة الوحيدة الفاعلة القادرة على الحركة بحرية ودون قيود أو ضوابط، ناهيك عن عدم وجود لوائح تنظّم العلاقات بينها وبين القاعدة وبين أفراد القاعدة أنفسهم، وأصبح الركب المنكوب لا يستطيع السير خطوة واحدة دونها، وكما يقول الأستاذ سعيد حوّى في كتابه "جند الله تخطيطاً":

"لقد رأيت أناساً يضعون قواعد تنظيمية ولا يخبرون أهل التنظيم بها، ولقد رأيت أناساً يتفقون على قواعد تنظيمية ولا يحترمونها بل يخرقونها، ولقد رأيت أناساً تقذف بهم المؤسسات إلى مراكز القيادة فإذا وصلوا إليها عطّلوا المؤسسات والأنظمة وأخذوا يتلاعبون بها".

وفي تصوّرنا فإن مثل هذا الدور الفدائي المقدّس قامت به قيادة الإخوان الحالية بعد خروجها من السجن، فقد انتدبت مجموعة من الإخوان نفسها لمهمة القيادة ومارستها بشكل بطولي، وعطّلت كل المؤسسات المنتمية التي كانت قائمة قبل المحنة، واحتكرت قيادة التنظيم حتى الآن، وقامت من جديد بصياغة التنظيم وإعادة بنائه.. وإذا كان التنظيم الحالي يدين لهؤلاء بفضل وجوده إلا إن هذه العملية قد استحدثت إشكاليتين..

الإشكالية الأولى:

هي شرعية وجود هذه القيادة؛ فهي ليست منتخبة ثم إنها قامت بإعادة صياغة القاعدة وفق مفهومها وفكرها، واستبعدت من خالفها وحتى لو قامت

هذه القيادة بعمل انتخابات فلا أتصور أن تنتخب هذه القاعدة التي أعدّت على عينها غير هذه القيادة!

الإشكالية الثانية:

هي أن هذه التجربة تعطي مبرراً لأي نزعة استبدادية ليس لها شرعية شورية أن تسعى لكي تكتسب شرعية وجود عن طريق عملية غير شورية..

عموماً فنظام التربية والخطاب الإعلامي عملية غير شورية..

داخل الحركة نفسها من يدعو لهذا الدور المتضخم للقيادة وطيفها الفروسي، وإذا راجعت الكتابات التي تطرّقت إلى العلاقة داخل التنظيم تجدها تؤكد هذا الدور وتحشد القاعدة حشداً للسمع والطاعة واتّباع القيادة..

ومثال على ذلك كما أسلفنا مسبقاً كتاب الأستاذ مصطفى مشهور "بين الجندية والقيادة"، فنجده مثلاً يفرد حوالي ٢٠ نقطة للحديث عن أخلاق وصفات للمسئولين والقادة ليس من بينها على كثرتها الكفاءة الشخصية والعلمية والبنية الفكرية وملكة القيادة والحضور الذهني والعقلي... إلى آخره، ثم يتحدث في ١٤ نقطة عن طبيعة العمل ومجالاته، وكلها نقاط موجّهة للقيادة وليس فيها خطاب واحد للقاعدة، ثم يتحدث في ٢٧ نقطة عن ملاحظات تتصل بحسن سير العمل، وكلها تحضّ على ممارسة الدور الفوقي الوصي على القاعدة، وليس فيها ذكر للقاعدة إطلاقاً، فمثلاً يقول:

(١) أن تحرص القيادة على أن يسود جو الانضباط والمحاسبة على الأخطاء؛ لعدم ظهور روح التسيب واللامبالاة.

(٢) على القيادة أن تحمي الصفوف من العناصر الغريبة ومن حملات التشكيك التي يقوم بها الأعداء.

(وصاية فكرية تهمل دور المنعة الذاتية والقدرة على اختيار الأصح).

يحشد الكاتب ٨٢ نقطة للحضور المكثف للقيادة ويقابله تهميش كمي ونوعي للقاعدة في الخطاب الموجه لها أو الخاص بها، في شكل ٢١ نقطة كلها تقوم بعملية حشد نفسي أخلاقي وديني؛ لتكريس السمع والطاعة والتسليم للقيادة والتحذير من الشك فيها دون التطرق لأي حق من حقوق القاعدة.

عبّر الأستاذ عمر التلمساني عن هذه العلاقة بقوله: "كنت والأستاذ البنا كالميت بين يدي مغسله". وبغض النظر عن فترة الأستاذ البنا ومقومات شخصيته الفذة العبقرية، فإن الحاصل الآن رغم أن القيادات الحالية لا تملك تلك الناحية التي تميز فيها البنا من قوة روحية خلقية وعبقرية وتنظيمية فإن نظرة القاعدة للقيادة لم تخرج عن هذا المفهوم الذي يصبح حاجزاً ضخماً في عملية النقد والمراجعة والتصحيح يصعب تخطيه..

وبهذا المفهوم تتكامل صورة القيادة داخل التنظيم؛ فالقاعدة تنظر للقائد على أنه أب وشيخ وهم أبناؤه ومريدوه، والقيادة تنظر للقاعدة على أنهم جيش يحتاج لقيادة أو جسد يحتاج لرأس، وهي الرأس الوصي على هذا الجسد الذي يسوسه لما فيه المصلحة.

إشكالية التصعيد داخل التنظيم:

(١) انطلاقا من مبدأ الحفاظ على أصالة الدعوة فإن القيادة لها صلاحيات واسعة في التعامل مع أي صوت معارض أو رأي مخالف عن التركيبة الهلامية الصوفية التي تصبغ التنظيم، وأي خروج من هذه التركيبة أو ما يسمي بعجينة التنظيم ربما أودى وأطاح بأي فرد منها كائنا من كان مكانه، وصلاحيات الفصل منصوص عليها في القانون الأساسي، وصلاحيات

التوقيف أوسع وأوسع عبر التهميش والإهمال والتطفيش... والقيادة والتنظيم عامة يقوم بشكل لاشعوري بعملية تذويب وتهذيب منظمة لكل من شذَّ عن عجينة الإخوان؛ اعتمادا على قاعدة تقول بعدم القبول بوجود مدارس وتيارات فكرية داخل الجماعة.

(٢) عدم وجود مؤسسات عدلية تحكيمية يسهل الوصول إليها، وعدم وجود لوائح منظّمة لعمل مثل هذه المؤسسات.

(٣) لا تـزال القيادة في مستوياتها تحبِّذ التدخل لاختيار المسئولين حفاظاً على أصالة التأسيس.

التنظيم يمارس عملية تذويب وصهر لمدخلاته لا تسمح بوجود من يشذّ ويتميّز عن هذه العجينة أو هذه القوالب التي تخرج لنا، أي أن عملية القولبة والنسخ التي يقوم بها التنظيم والتي لا تسمح بوجود القدرات المبدعة والمبتكرة، وعلى هذا فمعيار التفاضل داخل التنظيم هو القدرة على التنفيذ وليس القدرة على الابتكار والإبداع؛ فهذه قدرات غير مرغوبة وغير معترف بها، كما أن جوَّ التنظيم غير المتفتح والذي ينحصر وينكمش فيه العمل العلني لا يساعد على بلورة الكفاءات وصناعتها وإظهارها، وفي تصورنا فإن غياب الكفاءات والمواهب المتميزة داخل التنظيم له ثلاث أسباب:

(١) عدم قدرة التنظيم على تكوين الكفاءات وإهمال الفكر على حساب العمل والتنفيذ.

(٢) عدم قدرة التنظيم على جذب الكفاءات.

(٣) عدم تصعيد الكفاءات لمستويات القيادة باعتبارهم ثرثارين غير قادرين على التنفيذ.

ويستمر نزيف الكفاءات من داخل الحركة إلى خارجها نزيفاً مستمراً يحرم التنظيم من كنوز عقلية وفكرية، ويساعد على هذا مفاهيم غير واضحة مؤداها أن الجماعة تنفي خبثها، والبقاء للأصلح مع الحشد النفسي والتربوي ضد النقد والمراجعة ودعوات التصحيح عن طريق قصر هذه العمليات على القنوات الشرعية وليس بشروطها الشرعية فقط، والتحذير المتكرر من التخلي عن أمانة الدعوة والاستجابة لدعوات المتشككين والمجروحين، وكأن القاعدة لا تملك عقلاً يميِّز بين الخبيث والطيب..

تخلُّف الهيكل الإداري واللائحة:

وكأي تنظيم أو حزب كان للإخوان لائحة قانون أساسي تضع أساس الهيكل التنظيمي ووظائفه، وتم تعديل هذه اللائحة عام ١٩٨٢ بناء على طلب المرشد العام من مجلس الشورى المجتمع على اللائحة المؤقتة التي أقرّها المرشد العام سنة ١٩٧٨ ولا توجد اختلافات جذرية بين اللائحة القديمة والمعدَّلة من ناحية الهيكل على الأقل، ولم تبذل محاولات جادة لإعادة هيكلة التنظيم وطرح وسائل جديدة للإدارة فيه، وكأن ما يزيد على خمسين عاماً بين اللائحتين ليس وقتاً كافياً لإعادة النظر في الهيكل الذي يجمع سلطات كبيرة في يد نخبة قليلة.

رغم أن العالم كله يتجه إلى تفتيت القيادة إلا أن القانون الأساسي يجمع هذه السلطات، ويعطي سلطات واسعة للمرشد العام ومكتب الإرشاد، كما أن القانون الأساسي يخلو من وضع ضوابط محددة ومقيدة لسلطات المسئول الكبير، وأدى غياب محاولة عقد القيادة لمؤتمرات عامة إلى تجمد وثبات..

وتركت المهمة أو معظمها على عاتق الجيل المؤسس للحركة الذي عايش

اللوائح القديمة وتكامل معها؛ لتوريث هذه اللوائح على شكل خبرات وأساليب عمل غير مكتوبة، تشكّل أسسا وقواعد تجرَّع تربوياً للأفراد، ولهذا السبب وأسباب أخرى فإن قيادات الإخوان في لهث دائم وجهد جهيد للموائمة بين الأسس التنظيمية الموروثة وغير المكتوبة وبين الواقع الذي يقدّم كل يوم وكل ساعة تحدّيا جديدا غير مسبوق دون التفكير لوضع إطارات جديدة للعمل ولوائح مكتوبة ومتفق عليها عبر مؤسسات شورية تنظم العلاقة داخل التنظيم، وكما كان التلفيق هو منهجنا في التعامل مع المشكلة التربوية والفكرية كان الترقيع هو منهجنا في التعامل مع المشكلة التنظيمية، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

ماذا نريد؟

نريد أن نفهم ونطبّق وننقل ونحذّر.. إننا نعيش مرحلة شديدة الحسم (ما زال الكلام عن فترة ١٩٨٦) في تاريخ دعوتنا وأمتنا على السواء، وفهم هذه المرحلة وتركيباتها والقوى التي تعمل فيها والتوازنات التي تسيّرها والأسس التي تقوم عليها، هذا الفهم لازم بل نعتبره فقه المرحلة ويحتاج إلى فهم على بصيرة.

الإسلام أسلوب حياة متميز لا ينفصل عن الواقع ومتغيراته، والقضية التي تواجه العاملين للإسلام تكون دوماً البحث عن صيغة تحقيقه في الواقع، وهذا يحتاج بجانب فقه الواقع والمرحلة إلى فقه الخطوط العريضة للإسلام، ويستلزم العمل للإسلام إحداث تغيير شامل في النفس، والمجتمع، والواقع.. تغير في "التفكير": أساليبه وقنواته وأولوياته.

ونفير في "التطبيق": نمطه وآفاقه وأساليبه..

ولهـذا التغيـير سنن لا بد أن نفقههـا، وهي سنن التغيـير، ولا بد أيضاً من فهـم التاريـخ الإسلامي بعمق يتجـاوز العاطفـة المتحيزة معـه أو ضده؛ ففي التاريـخ نجد كيف فهم أسلافنا النصَّ وكيف طبَّقوه، وفي التاريخ نجد عوامل التجميع والتفسيخ وشـكل المجتمع عندما يتعامل مع واقعه، ونجد زخماً هائلاً من التجارب نحن في أمسِّ الحاجة إليه، وهذا هو فقه تجارب الماضي..

لا بد أن نفهم أن الظروف تقف غالباً في وجه هذا الفهم الذي نعتبره أساسياً ولازماً، لذلك هذا الفهم يحتاج إلى جهد ذاتي ضخم وهمة عالية للبحث والتنقيب وللاستيعاب والفهم، وأن نفهم أن هذا الفهم لن يولد بين يوم وليلة، ولن ينتشر كذلك بسهولة..

لا بد أن نفهم بعمق ونستحضر عدة ملاحظات منها دور المرأة المسلمة الريادي في استخراج هذا الفهم؛ فنفسية الرجل غير نفسية المرأة، وهي ترى لذلك ما قد يغيب عنه، ودورها في تطبيقه؛ فهي مصنع الرجال أو هكذا ينبغي أن تكون..

والاستفادة بكل فهم قديم أو حديث، ولا نستطيع إطلاقاً تجاهل فهم الإمام الشهيد حسن البنا الذي نعتقد أن فيه الكثير جداً مما يفيدنا فيما نحن بصدده، وما ظهر منه هذا الآن ليس سوى قمة جبل الجليد..

ولا بد أن نفهم أن كل واحد منا طاقة هائلة إذا أحسن استخدامه، وكذلك يمكن أن يخطئ أخطاء بشعة ربما عندما ينفرد بالتفكير والقرار، والجماعية لا تعني ذوبان الكل في كيان واحد بقدر ما تعني التفاهم والقدرة على العمل كفريق يستخدم الفروق الصحية بين أفراده لخدمة الفكرة..

ونريد أن نطبِّق ما نفهمه على أنفسنا؛ فالفكرة التي نفشل في تطبيقها

عملياً على أنفسنا ستكون فاشلة لدى غيرنا.. بل أعتقد أننا سنفشل في توصيلها..

- لا يمكن أن ندعو لدور ريادي للمرأة وزوجة كل منا ذات دور محدود وأحياناً متخلّف.

- لا يمكن أن ندعو لحوار واسع ونحن لا نستطيع أن نطبّق اختلاف الآراء ولا نستطيع الاستفادة منه.

- لا يمكن أن ندعو إلى الحكمة والخبرة والدراية والكفاءة ونحن غير ذلك.

- لا يمكن أن ندعو إلى النظام وبيت كل منا ووقته وحياته فوضى.

- نريد أن نطبّق ما نفهمه على أعمالنا داخل الحركة، فبعد أن نستوعب فكرةً ما علينا أن نطبّقها ونوجد لها الحياة على أرض الواقع، ولا يعني هذا إطلاقاً الصدام بل النصح والتمسك بما نراه صواباً..

- نريد أن نطبّق أشد المناهج حدة في النقد مع التمسك بأعلى درجات الولاء والانضباط؛ حتى نثبت لغيرنا أن ذلك ممكن، وحتى نشجّع غيرنا على تبني ما نراه، وحتى يستمر السير كما هو على الأقل إن لم نستطِعْ نحن بفهمنا وحركتنا أن ندفعه إلى الأمام..

- نريد أن نطبّق الإسلام بالصورة التي نطمع أن نراها في حياة الناس، إننا نعتقد أن الإسلام نعمة الله الكبرى للناس وينبغي أن نعيش بهذه النعمة سعداء نتقدم من طور لآخر، ونصعد سلم المثالية درجة درجة..

- الإسلام سعادة وأمل وحضارة، فلا يستقيم أن نكون محزونين محبطين متخلفين في تطبيقنا الشخصي أولاً.

- نريد أن نخوض حرباً لا هوادة فيها ضد أنفسنا وكل مناحي التخلف.. ينبغي ألا نهادن الخطأ ولا نصبر عليه إلا ونحن نعمل على تغييره.. وينبغي ألا نرضى لأنفسنا بالدنية والترخص، بل إن كنا ندعو لمنتهى الرفق مع الناس فإننا ندعو إلى منتهى الشدة مع النفس.

- نريد أن نبدأ من الآن في إيجاد القنوات التي تخدم نمط تفكيرنا، ولو لم نستطع التعامل معها جميعاً اليوم فلا بد من جمعيات ومؤسسات.. لا بد من دراسات وكتابات.. لا بد أن ندخل في كل عصب مؤثر..

- نريد شبكة اجتماعية واسعة جداً تحت شعار "لتعارفوا"، وحوار كل من نستطيع محاورته ولو بصورة شخصية بعيداً عن الشكل الرسمي المقيِّد.

- لا بد من اطِّلاع مستمر واحتكاك متواصل مع كل جهد في هذا البلد مهما كان اتجاهه، ولا بد من الدعم قدر الطاقة لكل ما يمكن أن يساعدنا على الوصول لأهدافنا أو يقدمنا لخطوات للأمام على طريق أهدافنا.

- نريد أن ننقل هذه المفاهيم لكل الناس كلٌّ حسب قدرته.

- تبقى نقطة غاية في الأهمية وهي الإصغاء للنقد ممن هم خارج الحركة خاصة يكشف جانباً واحداً من الصورة متعددة الأجزاء والمعالم، والإصغاء للنقد ممن هم داخل الحركة فهو يكمل بقية الأجزاء..

في هذه الحلقة يختتم إصلاحيو جماعة الإخوان القدامى ورقتهم الإصلاحية، ويوضحون الدور المطلوب من الجماعة وتفاعلها بين الظاهرة الإسلامية من جهة وجمهور المتدينين من جهة أخرى.

أزمة الجماعة مع الظاهرة الإسلامية
والتوظيف المفقود

تشهد الظاهرة الإسلامية انتشارا واسعاً ونمواً متزايداً في مستويات ومجالات واسعة نشهده في المظهر والشكل، ونشهده في الاقتصاد والتجارة، ونشهده في الصحافة والإعلام، كما نشهده في المساجد والندوات الدينية، بل ونشهده في الفن والتمثيل، ولكن رغم النمو المتزايد والانتشار الواسع للظاهرة الإسلامية فإن علاقة الجماعة بها ما زالت قاصرة وغير قادرة على توظيفها التوظيف الصحيح لصالح المشروع الحضاري الإسلامي وهدفه التغييري..

العقبات والأسباب:

(١) تعاني الظاهرة من مركّب جهل رهيب فهي جاهلة بنفسها.. جاهلة بالواقع الذي تعيش فيه.. وواقعها بالمقابل جاهل بها وبأهدافها وأطروحاتها. ولا يعرف عنها أحد إلا القليل.. اللهم إلا أعداؤها..

والجماعة عندما تتعامل مع التيار الإسلامي عموماً ومع جمهور الظاهرة تعاني من آثار هذا الجهل، وتتورط فيما يمكن أن ينتج عنه من أخطاء..

(٢) ضعف شبكة المصالح والعلاقات بين أفراد الظاهرة وبينهم وبين مجتمعهم، مما يُضعف قدرة الظاهرة على التأثير في واقعها، وتصعب عملية التوظيف بالقطع..

(٣) ضعف مؤسسات المجتمع المدني رغم تضخُّمها الظاهري، وبالتالي لا توجد قنوات تستوعب استعدادات أفراد جمهور الظاهرة سواء داخل أو خارج مؤسسات الجماعة تتجاوب مع فهمهم للإسلام.

(٤) إصرار الجماعة على التسييس، ويتضح ذلك في طرح الحركة وخطابها وأسلوب حركتها في المنابر العامة التي وصلت إليها، وهذا الإصرار يفضّ من حولها جمهورا كثيراً، إما خوفا أو اشمئزازا من السياسة وما عليها من محاذير، وهذا يحرم الجماعة من جماهير عريضة يمكن أن تساعد في عملية التوظيف.

(٥) العقلية التنظيمية الحزبية الضيقة لأبناء الجماعة التي لا ترى توظيفاً للطاقات إلا عبر بوابات التنظيم وعلى خطوط سيره، أو بمتابعة أطره، والتي لا ترى نجاحاً إلا في نمو التنظيم رأسياً وأفقياً، والتي تصوغ علاقتها قرباً أو بعداً اهتماما أو عزوفاً على هذا الأساس..

(٦) ضعف القدرات الإنسانية العامة لأبناء الجماعة في الاتصال بالناس واكتسابهم والتأثير فيهم، وهي مشكلة يعاني منها المجتمع ويلقّنها لأبنائه.

(٧) غياب منهج التعامل مع الآخر وتوظيفه، وما يلزمه من أرضية ثقافية.. يغيب هذا المنهاج وما يتطلبه من خلفيات وأرضيات ثقافية وبرامج عملية عن مناهج الجماعة.

(٨) انعزال الجماعة شبه الكامل عن الأدوات الرسمية للاتصال والتأثير والتوظيف المناسب.

(٩) قصور الخطاب الإعلامي والثقافي الإسلامي الصادر عن الجماعة كمّا ونوعا..

(١٠) الانفصال بين مجالي التخصص الحياتي والموهبة.. أو مجال عمل الدعوة.. يضعف قدرة العنصر الإسلامي في استخدام كل طاقاته وكذلك رعاية المواهب داخل الجماعة.

(١١) ضعف التوظيف داخل الجماعة نفسها؛ بحيث تعاني من تكدس في مجالات معينة وندرة هائلة في مجالات أخرى.

(١٢) غياب آليات التوظيف وتطبيقاته عن جسم الجماعة أضعف قدرة أبنائها على ممارسة هذا الأمر؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

(١٣) الفجوة بين الصفوة والجماعة بوصف الصفوة هي قيادة المجتمع ولو بصورة غير مباشرة، كذلك بين المفكرين والجماعة بوصف المفكرين مهتمين بها وقادرين على خطاب أعمق تأثيراً.

(١٤) التضييق في المناخ العام للمجتمع يحجّم بين مساحة الاحتكاك بين الجماعة وجمهور الظاهرة.

(١٥) الفهم القاصر للإسلام والتكريس المستمر له في الذهنية العامة عبر الوسائل المختلفة.

(١٦) غموض وقصور الخطاب الموجّه والمنهاج الضابط في التعامل مع المرأة.

في الانعكاسات والنتائج:

الظاهرة الإسلامية تنمو إذن ولكن بمعزل عن غالبية الأطر الحركية والتنظيمية والفكرية الموجودة، ولا نبالغ لو قلنا إن تأثير الأطر عليها يكون أحياناً سلبياً لا إيجابياً..

إنها تعيش كاملة بالتقريب في الجو العام للمجتمع وتتأثر به، مما أصابها من أمراض عدة نذكر منها:

أولاً: الانصراف عن الهمّ العام وانشغال كلٌ بمشروعه، وينعكس ذلك في

بروز مظاهر التدين الشخصي (الحجاب، النقاب، المسبحة... إلخ) وضمور قيم التدين الجماعي مثل الاجتهاد في العمل، والإنفاق في سبيل الله، وبذل الجهد في الإنتاج... إلخ.

ثانياً: ضعف الثقافة العامة بل والثقافة الإسلامية حتى إننا لا نبالغ إن قلنا إن الفرق بين ثقافة جمهور الظاهرة وثقافة رجل الشارع ليس كبيراً!!

وبالتالي يصبح سهلاً خداع الظاهرة وتقديم الإسلام لها على أية صورة؛ فملامح النموذج الإسلامي غير واضحة، وكذلك محاور المشروع.

ثالثاً: ذوبان الذات وانسحاق الشخصية، ونعني بذلك الممارسات غير المنضبطة وغير الواضحة شرعاً من العلاقات والمعاملات من أفراد محسوبين على الظاهرة تياراً وجمهوراً.

رابعاً: التأثر الشديد بالخطاب الإعلامي المعادي للجماعة في أغلب الأحيان.

خامساً: الموقف غير الواضح من الأقباط.

سادساً: ضعف دور المرأة وحجم مشاركتها رغم ارتفاع نسبة هذه المشاركة من الناحية العددية.

الظاهـرة الإسلامية والتي تمثل الجماعة إحـدى روافدها لم تستطع رغم التزامهـا وتناميها تخطـي العقبات والتخلص من الأمراضـ التي يعاني منها مجتمعها وتمنعه من التقدم، وبالتالي أصبحت الظاهرة تختلف عن مجتمعها، ولكن ضمن نفس الإطار المتخلف والتابع شديد القصور والقدرة على التطور..

إن الظاهرة تنمو تدريجياً، ولكن المجتمع حتى الآن قادر على قضمها قطعة قطعة وهضمها وتذويبها داخل نسيجه، بل وتوظيفها لمصالحه المادية.

المجتمع يحركها أكثر مما تحركه ويؤثر فيها أكثر ما تؤثر فيه..

لقد ابتعدت الظاهرة عن فساد مجتمعاتها الثقافي والفكري والاجتماعي والسياسي خطوات، لكنها ليست كافة للتغيير.

إن الظاهـرة الإسلاميـة تنمو برضاء المجتمع إلى حـد كبير، وداخل أطره ومؤسساتـه وتعيش بداخلـه.. وتستخـدم نفسـ أساليبه.. وتعـاني من نفس أمراضه..

وتكمن المشكلة عندما نرصد أن الظاهرة لا تسعى لتغيير هذه الوضعية للأفضل..

في الحل والعلاج:

نعتقـد أن الخطـوة الأولى لعـلاج هـذا القصـور هـو استعـادة الثقة على المستويات الثلاثـة: الجماعة، والتيار الإسلامي، وجمهور الظاهرة.. لا بد من ثقة بجدوى المحاولة والقدرة على التغيير في واقع محبط وضخم.

وقناعتنا بأن هذه الثقة تدخل طرفاً في علاقة جدلية مع وضوح الذاتية الإسلامية فلا بد من بناء سريع لهذه الذاتية..

إن أخطر المهامّ التاريخية المطلوبة من أهل الرأي والثقة والفقه في الأمة في مرحلة ما هي صياغة واضحة للعلاقة بين الإسلام والمرحلة:

ماذا نأخذ وماذا ندع؟ وكيف نتفاعل؟ ماذا نقبل؟ ماذا نستنكر؟ كيف نفكر؟ ماذا نقرأ؟ وكيف ندير علاقتنا مع الآخرين؟ إلخ.

والإجابات بعد ذلك ليست صعبة

نحـن في حاجـة إلى: برامـج واضحـة وخطط لتغيـير العقليـة الإسلامية ومعالمها..

ونحـن في حاجـة إلى قنـوات واضحـة ومستوعبـة ومتنوعـة للمشاركـة والتوظيف..

ونحن في حاجة لنماذج مبهرة لافتة للانتباه في كل موقع وصلنا إليه..

ونحـن بحاجـة إلى استكشـاف سريع وعميـق لأبعاد الظاهـرة ومكوناتها واتجاهات جمهورها..

ونحن بحاجة إلى إعادة النظر في الخطاب الإعلامي الإسلامي الخاص بالجماعة ومراعاة اتجاهات الجمهور وروح العصر في ذلك..

ونحن بحاجة إلى إعادة النظر مرحلياً على الأقل في صيغة الجماعة الشاملة لكل المهام من تربية للإرادة وممارسة العمل السياسي، وخوض لميادين الجهاد الاجتماعي والتحوّل مرحلياً على الأقل بالرضا بمجالات معينة ومحددة وسدّ المعجز فيها..

وكما يقول شيخنا الغزالي:

"لقـد آن للصحوة الإسلاميـة أن تتحوًل من خطـوات متسارعة مشدوهة مضطربة إلى مسيرة راشدة لمصلحة الأمة".

المصارحة بأزمة الجماعة بداية الحل:

الفشل في الوصول إلى الأهداف التي تصدّى لها الإسلاميون من أهداف مرحلية أو استراتيجية، خصوصا أن سمات الفترة الماضية تميّزت بنوع من التحدي السلمي للإسلاميين عن طريق إتاحة هامش حرية نسبية لهم لم يعايشوه من قبل، ويبدو أنهم لم يكونوا مستعدين لمارسته، بل والتكيف مع هذا الجو الجديد وهو جهد أظهر أنهم غير قادرين على الحركة المتفاعلة

السريعة، وهم الذين اعتادوا الأناة والسلحفائية، وإهمال عنصر الزمن بشكل أو آخر من خلال حياتهم في المعتقلات والسجون..

لا شك في أن هذه اللحظة هي من لحظات الحسم والقطع، ولم يعد من الممكن الاستمرار في نفس الاتجاه دون بصيرة ودون وعي، خصوصا أن مبررات السير وبهذا الشكل في الماضي من ملاحقة واضطهاد لم تعد موجودة الآن بنفس الشكل، لذا فإن الاستمرار بنفس الشكل هو مقامرة بمعنى الكلمة..

هناك أزمة مصيرية بلا شك تواجه الجماعة، وهي من الأهمية بمكان؛ لأنها تتناول جهودا ضخمة مخلصة، وتهدد قدراً كبيراً من المكاسب التي بذل فيها الكثير من جهودهم ووقتهم للحصول عليها..

لا بد أن نعترف بداية بوجود أزمة وإحياء جوٍّ من النقاش والحوار والمراجعة والمصارحة بيننا وبين من يهمه الأمر، ويجب التركيز على هذه القيمة قيمة الحوار والمراجعة والمصارحة؛ لأنها الباب الذي يحمل الأمل إلينا.. دائماً أن يلج إلينا منه الحل..

وهذه القيمة "الحوار والمراجعة والمصارحة" هي أغلى ما يجب أن نحافظ عليه أو نوجده بأي وسيلة كانت، وبكل صوره المتاحة؛ لأن هذه القيمة هي مفتاح حل هذه الأزمة والأزمات المستقبلية، والفشل في إحياء هذه القيمة هو الفشل التام الذي تصبح بجانبه كل عمليات الإنعاش مضيعة للوقت والجهد ونوعاً من ضروب المحال.

ونعتقد أن أمامنا في هذا المجال مستويين لمواجهة هذه الأزمة..

المستوى الأول:

استنفار العقول الهائمة الغائبة عن رشدها من رقدتها لتعي حجم الأزمة ولتحمل مسئوليتها في حلِّها.

المستوى الثاني:

أن نتصـدى نحن أنفسنا ومن يحمل معنا هذا الهـم لهذه الأزمة، ونحاول دراسـة أبعادهـا ومضاميتهـا وأشكالياتهـا، ووضـع حلـول مقترحـة لها قدر الاستطاعة.

وستواجهنا إشكالية هي كيف نخرج من دائرة الفهم ودراسة أبعاد الأزمة ووضع الحلول المقترحة إلى دائرة التطبيق؟ ومن يقوم بهذه النقلة؟ وكيف؟ ومتى؟

لذا نرى أن الحلّ المتصور لهذا العمل يكون على المستويين معاً مع الوضع في الحسبان أن المستوى الأول للجماعة هو الأساس، ولكن نظراً لأننا لا نعرف متى وكيف وكم يستغرق من الوقت لنصل إليه فلا بد من ممارسة القدر المتاح والجهد الممكن على المستوى الثاني..

إذا أردنا وضع إطار أوَّلي لحجم المشكلة ووضعناها في المكان الصحيح فلا بد من تحديد عدة مفاهيم كحدود أولية لهذا الإطار:

(١) إن مفهوم التناسخ ونسخ الجديد للقديم والإحلال محله تماماً هو مفهوم يجب التخلص منه؛ إذ إن القاعدة أن تحتفظ بالمكاسب، وأن تتخلص من السلبيات.

(٢) يجب انطلاقـا من هـذا المفهوم مراجعـة تجارب الماضـي؛ لتحديد المكاسب والسلبيات.

(٣) لا يمكن أن نصل إلى حلّ شامل بعيون نصف مغمضة أو عقول مُقَوْلَبَة، بل ينبغي أن نخرج من كل الحساسيات إلى أفق أرحب، ومن محدودية الرؤية إلى شموليتها وكمالها.

(٤) المرحلة الحاليـة لا تحتمل التلفيق بل تحتاج لحلول صريحة ومباشرة وواضحة، ولنعلم أن التلفيق لا يحل المشكلة وإنما ينقلها إلى المستقبل..

(٥) الأصل هو الاستفادة الشاملة من جهود كل المخلصين، والتخلص من الاستئثار بالتصدي للمشكلة، وينبغي إدراك أن الحل الناجح ليس هو الطرح فقط بل هي الممارسة التي تستطيع توظيف وحشد كل الإمكانيات لحل المشكلة.

(٦) يجب التخلص من النظرة الكهنوتية للمشاكل والحلول، فلا مجال لها الآن، ويجب أن نحسم خياراتنا (العلمية والغيبية) في التعامل مع الأزمات على أساس أسباب المشاكل وحلولها، وينبغي أن تكون من منظور علمي بحت، وليس من منظور غيبي؛ مثل: سنن الدعوات.. إرادة الله بنا.. محن وابتلاء.. الشجرة التي تنفي خبثها!! وليس هذا من منطلق رفض أو إنكار لهذه الغيبيات، وإنما من باب أنه لا مكان لها في التعامل مع الواقع ومعالجته.

(٧) لا بد من عودة للتفتيش في الدفاتر القديمة؛ لاستكشاف جذور المشكلة والوقوف عليها واقتلاعها، وإذا كنا ننادي بالعودة إلى التاريخ الإسلامي للاعتبار ولدراسة مكاسبه وسلبياته، فمن باب أولى أن نعود إلى تاريخ المدرسة الحديثة الذي -مع الأسف- لم نستطع فك رموزه أو حسم الجدل في بعض غوامضه.

(٨) ينبغـي أن ندرس مـن جديـد تصوّرنـا لطبيعـة الصـراع والمشاكل والتخلص مـن التفسير التآمري الـذي يريحنا ويحـلّ ويفسر لنـا كثيرا من مشاكلنا حالياً.

(٩) لا بـد مـن حسـم خيـار الطـرح الإسلامـي علـى أسـاس أن الطرح الحضاري للمشروع الإسلامي هو المقبول الآن.

(١٠) ترسيخ النظرة الإنسانية الشاملة للكون وللعالم وممارسة التفكير ووضعها في مكان بارز في طرحنا الحضاري، على أساس أن الناس إما إخوة لنا في الدين أو نظراء لنا في الخلق.

صراع الجماعة بين الطرح الحضاري والطرح السياسي:

أولاً الطرح السياسي:

والذي يبدو له الغلبة الآن في واقعنا؛ لعدة اعتبارات لعل أبرزها الدور الذي أصبحت تضطلع به السلطة السياسية في المجتمع المعاصر، بحيث أصبح لها الغلبة على المجتمع المدني بحكم نزعتها الاستبدادية.

بالإضافة إلى الصدام المستمر بين الحركة الإسلامية والسلطة الحاكمة في كثير من البلدان المسلمة حتى تحوَّل هذا الصدام المستمر في أحيان كثيرة إلى تراث تاريخي يعمِّق نظرة عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين..

هذا الطرح ينطلق من مقولة: "إن الله ليَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن".. ليجعل هدف الوصول للسلطة للتغيير باعتبار السلطة فاسدة.

هذا الطرح صراعي الطبيعة، وهو أحد الأسباب الرئسية للصدام المستمر بين الأنظمة والحركات الإسلامية.

وهو يؤجِّل حلَّ المشاكل التي يعاني منها المجتمع حتى إقامة نظام إسلامي أو الوصول للسلطة ناسياً أو متناسياً أن أولى متطلبات النجاح لأي حركة سياسية أو تيار إسلامي هي قدرته على تقديم الحلول لواقعه الذي يحياه..

هذا الطرح انعزالي عن الواقع الذي يحيطه، وأدّت هذه الانعزالية أحياناً إلى شطط وانحراف في التفكير.

ثانياً الطرح الحضاري:

وهذا الطرح الحضاري نعلن تبنّينا له من البداية، وهو ينطلق من الإسلام باعتباره دين تحرُّر من عبادة الطاغوت، وهو كل ما يعبد من دون الله في ضوء هذا الفهم.. لا بد أن نحدد أبعاد المعركة الحقيقية للعمل الإسلامي، وهي في اعتقادنا معركة ذات طبيعة حضارية معركة بين نموذجين للحضارة.. غربي سائد يجعل الإنسان متمرّدا على الله محور حضارته، ونموذج صاعد للإنسان المستخلف في الأرض في محور ارتكازه..

معركتنا في أحد أبعادها مع النفس.. مع القابلين بالتخلف.. بعبارة أخرى تحقيق الشروط الذاتية للنهضة بما يعنيه ذلك من تصفية نفسية تاريخية في المجتمع..

الشرط الثاني مرتبط بالإنسان، ومن ثم فلا بد من إعادة صياغته من خلال نظرية شاملة للتربية: هدفها إيجاد الإنسان المتأهب للبناء الحضاري المدرك لمهمته الحضارية والمستبصر بثغره الحضاري، والحائز لتربية مناسبة وملائمة لمثل هذا البناء الحضاري.

إنسان مدرك لأسس حضارته مستبصر بأسس الحضارة الغربية قادر على نقل منجزاته بوعي وبصيرة.. إنسان واعٍ بتوازنات القوى الدولية وأثرها على معركته.. إنسان متابع لمعركة الحضارة الغربية في دول العالم الثالث قادر على مخاطبة شعوبها فيكسبها في صفه..

كذلك قضية فلسطين قضية مركزية للعمل الإسلامي: باعتبار أن تصفية هذا الجيب الاستعماري هي أولى خطوات انطلاق العالم الإسلامي..

هذا الطرح ينظر إلى السلطة بأنها ضرورة حضارية، وأصحاب هذا

الطرح يعتبرون أن بداية ما أصاب المسلمين ليس ظلم الأنظمة بقدر ما هو تحوُّل الخلافة إلى ملك عضوض واختفاء الشورى.. فكانت الهاوية لانحراف المسلمين المبكر، ومن ثم فإن بداية الإصلاح لا تبدأ بحال من السلطة فقط، بل تمرُّ أولاً بالفرد فالمجتمع فالسلطة.. هذا الطرح يفتح أمام العمل الإسلامي آفاقاً جديدة، فهو يرتبط بالجماهير أولاً وأخيراً؛ فهي صاحبة المصلحة في تحقيقه أو هكذا ينبغي أن نصل بها، وفي نفس الوقت هي القائمة بمعظم وظائفه..

وما دور الحركة الإسلامية إلا أن تحرِّك الجماهير وتقودها، وما الجماعة إلا منشِّط فعَّال نحو الحضارة؛ فهي ليست منشئتها وحدها إنما دافعة إليها، وفي هذا الإطار يجب أن يكون طرح الحركة الإسلامية معبِّراً عن آمال الجماهير وطموحاتها آخذة في الاعتبار همومها ومشاكلها، وهو طرح تجميعي يجمع القوى فيجعلها صفًا واحدا لمواجهة التحدي الحضاري القائم، يجمع أولاً غير المسلمين ممن يعيشون معنا حيث يكون الإسلام لهم حضارة وليس معتقداً يساهمون في تشييدها وينعمون بإنجازاتها.. ويجمع المذاهب والحركات الإسلامية المختلفة فيتحدون في القبلة ويختلفون في الفروع، ويجمع القوى والتيارات السياسية والعلمانية التي تدرك حجم التحدي الغربي وخطورته، وتهدف إلى النهضة وإن اختلفت منطلقاتها.. ويجمع الشعوب المستضعفة ويعيد ترتيب الأولويات للعمل الإسلامي، فيجعل من تحرر الإنسان أهم أولوياته وأولها معتقداً أن العبودية لله أعلى مراحل التحرر للإنسان من سطوة الآخرين..

تعليق:

بعد استعراض بعض الورقات الإصلاحية التي قُدّمت من حوالي ربع قرن لتطوير جماعة الإخوان المسلمين أرى أن استهلاك الوقت في الدفع وصياغة المبررات أصبح أمرا غير منطقي وغير مقبول، فربما انطلت التبريرات على البعض نتيجة مناخ عام سائد هذا سَمْته، لكن مظاهر التراجع والجمود لن تقنع البعض ولن يصمد أمامها كثيراً.

وهذا يرشّح الأمر ربما للتغيير، لكن الأمر الآن يتوقّف على موقف الإصلاحيين الجدد، ومدى تعلُّمهم من تجارب الماضي، فهل يستسلمون وينسحبون مثلما انسحب أقرانهم في الماضي، أم يضغطون من أجل التغيير والتطوير؟؟

في رأيي إن الأيام القادمة ستشهد تغييرات وتأثيرات كبيرة ربما تكون غير مسبوقة لهم داخل الجماعة ما دامت القيادة لا تشعر بأن السياسة الخالدة: "ياما دقّت على الرأس طبول" أصبحت بلا معنى.

هيثم ابوخليل أغسطس ٢٠١٠